تصـــديـــر

إن القـــارئ لشـــعر محمـــد العيـــد آل خليفـــة يحـــس بسـلاســـة التعبيـــر، و جمـــال الكلـــمة، و وضـــوح الـــمعنى وسـهولة النظـم حتـى ليخيـل لـه أن الشـاعر لـم يقـدح فـي قصائـده ذهنـا، و لـم يُعْمِـل فكـرا، و لـم تسـتعص عليـه قافيـة، بـل كان كل شـيء يـنقاد إليـه طائعـا، و لـولا القافيـة، وسـبك النظـم، لعـد مـن جواهـر النثـر الفنـي، ممـا يـدل علـى أن الغـرض الشـعري لـدى هـذا الشـاعر الـمبدع ليـس مجـرد شـوارد أدبيـة يقضـي سـواد ليلـه باحثـا عنهـا كلـما هـزه الشـوق إلـى قـول الشـعر، و إنمـا هـو يغـرف مـن نبـع رقـراق فـي الوجـدان لا يـنضب.

كانـت الجزائـر عبـر تاريخهـا الطويـل، و مـا زالـت، أرضـا خصبـة معطـاء، تلـد الرجـال العظـام، و تـنجب

الأعـلام، مـا تخلّفـت عـن ذلـك لحظـة، و لا وهنـت لهـا عزيمـة يومـا .

و كان أمرهـا عجبـا حيـن تكالـب عليهـا الاسـتعمار، وسـعى بهـا نحـو الإبـادة و الدمـار، فعلـى الرغـم مـن السياسـة الجهنميـة التـي انتهجهـا و مارسـها فـي حـق الإنسـان الجزائـري لطمس مقومـات هويتـه الوطنيـة، أبـى اللـه إلا أن يُقَيِّـضَ لبلادنـا، خـلال تلـك الحقبـة التعسـة النكـراء، رجـالات فـي السياسـة، و الحـرب، و الـعلـم، والثـقافة، من أولئك الـذيـن حفـظوا لنا كيانـنا، و أمنوا حضورنـا و ديمـومـتنا في حلبة التـاريـخ. و المقـام لا يتسـع هنـا لسـرد أسـمائهم، كلا، و لا لتعـداد جلائـل أعمالهـم و مواقفهـم.

فـي هـذه الإطلالـة علـى عالـم الشـعر و مـا يزدهـي بـه، يتـراءى لنـا أحـد أعلامـه العظمـاء، و نعنـي بـه محمـد العيـد آل خليفـة، ذلـك الـذي كان فـي طليعـة رجـالات الجزائـر الأفـذاذ الذيـن اضطلعـوا بواجـب و مسـؤولية

الأخذ بيد أبناء الأمة التائهين في دياجير الليل الاستعماري الحالك بغية تأنيسهم بنوره، و السير بهم قدما نحو شواطىء الحرية و أنوارها البهيجة. اختاره الله لسد ثغرة في جدار الثقافة الوطنية فصار شاعر الجزائر المبدع بحق، و أمير شعرائها، و ربما، أمير شعراء الشمال الإفريقي كله .

و بفضل الجهد القيم الذي بذله الباحث الأديب، باسم بلام، نعيد اليوم قراءة قصائد محمد العيد بعد أن افتقدناها في مكتباتنا، و لا نجد بدا من استذكار ما حفظناه منها في روعة الصبا و ريعان الشباب، كنا ندرس اللغة العربية و آدابها، بل و نخطفها خطفا، في زمن أقل ما يمكن أن يوصف به هو أنه زمن حالك السواد، أناخ فيه الاستعمار بكلكله على بلادنا. و لولا أن الخالق لطف بنا، و قيض لنا رجالا من طينة الشاعر محمد العيد آل خليفة لتمكن هذا الاستعمار من أن ينبذنا نبذ النواة و يقذف بنا خارج دائرة الوجود الإنساني.

لقد غرس محمد العيد للجزائر، في عوالم الشعر، دوحة باسقة وارفة الظلال رست جذورها في غائر الأرض، و نافست بأثمارها الطيبات الزكيات أخواتها في الأقطار العربية مشرقا و مغربا. و لقد نذر شاعرنا نفسه لصناعة الكلمة البليغة و قصرها على الطيب من القول شكلا و مضمونا، فجمع في شعره بين الجمال والجلال. و أهل الأدب و عشاقه في جميع أقطار الدنيا يعرفون أنه ما اجتمع هذان الوصفان في قول إلا وصنعا منه معلما من المعالم التي يتوقف عندها التاريخ بحافل أحداثه و أعلامه وقوف الإجلال والإكبار. يؤكد ذلك ما كتبه أمير البيان شكيب أرسلان في مقدمة ديوان محمد العيد، و ما كُتِبَ عن الرجل من تآليف ودراسات في الجامعات و خارجها. فهو أمير شعراء الجزائر بحق، صنع مع إخوانه من الشعراء من أمثال أحمد سحنون و مفدي زكريا و محمد الشبوكي و محمد الأمين العمودي و الحفناوي هالي، و الربيع بوشامة و عبد الكريم العقون، و غيرهم، مجد الجزائر

الأدبي. و لذلك كان لزاما علينا تمجيد تلك الكوكبة من فرسان الشعر النابهين بأن نحفظ مآثرهم ونصون آثارهم.

و ها هو عمل الأستاذ الأديب باسم بلام العلمي الرصين يأتي لبنة من لبنات الاعتراف بما صاغه شاعرنا العظيم محمد العيد للأمة و الوطن من قلائد الكلام الساحر الذي يزدان به جيد الأدب العربي مشرقا و مغربا، و حيثما كان للضاد موقع في العالم.

نظم محمد العيد في أغراض الشعر المختلفة، كتب غزلا رقيقا عفيفا، و وصف طبيعة الجزائر، ورثى رجالاتها و عظماءها، و نافح عنها بأن تصدى لخصومها و أعدائها، و صافى إخوانه و أخلاءه بطيب العواطف و زكي المشاعر، و دبج بميزان الشعر، و بديع التصوير، و بليغ الألفاظ و بديعها، تاريخ بلده و شعبه و أمته دون أن ينسى الأحداث العالمية التي كان لها صدى في التاريخ و الحضارة الإنسانية.

لعل أبرز ما يمكن أن نلمحه في شعر محمد العيد موضوعان يتناول أولهما الإسلاميات التي أهلته لأن يكون لسان جمعية علماء المسلمين الجزائريين، و«حسان» دعوتها الإصلاحية، و لا غرابة في ذلك، فقد ترعرع محمد العيد في أحضان عائلة تقية متدينة إذ كان والده مقدم الطريقة التيجانية، و لا يخفى على ذي بصر بالتاريخ ما كان عليه الشعب الجزائري من نزوع فطري إلى التدين البعيد عن المبالغة و الغلو والتعقيد، فتدرج محمد العيد في مجالس السالكين وعلا فيها شأنه، و رضع لُبَان التدين الصميم، في أسرة تلفها العناية الإلهية من جميع جهاتها: قرآن يتلى آناء الليل و أطراف النهار، و صلوات و دروس و أذكار غرست في روحه المطواع بذورا لتقويم السلوك، و نزوعا إلى الخير و الزهد، و الورع و التقى.

إن إسلاميات محمد العيد صورة تعكس المرجعية الفكرية الجوهرية للشعب الجزائري الذي زاوج، في

التزامه، بين تياري الإصلاح المتزن المتفتح و التصوف الذي يرقى بالروح إلى حيث تروي ظمأها الوجداني.

أما الموضوع الثاني فتناول الوطنية و الثورة، إذ عقد محمد العيد صفقته مع الشعب والوطن، فوهبهما نفسه منافحا عن قيمهما و هويتهما ماضيا و حاضرا ومستقبلا، حتى إنه، إعظاما للشعب الجزائري و هياما بتاريخه النضالي و التحرري، أهداه ديوانه الذي ضم نفائس القصيد، و أعلاق الحكمة والبيان.

وطنيات محمد العيد كانت تحدوها صيرورة الحركة الوطنية الجزائرية برجالاتها و محطات النضال في صحائفها البيضاء. لقد كان بارا بأم أنجبت الأمير عبد القادر، والمقراني، و لالة فاطمة نسومر، و مصطفى بن بولعيد، ومحمد العربي بن مهيدي وديدوش مراد، و زيغود يوسف، و العقيد عميروش، و العقيد لطفي، و حسيبة بن بوعلي، وغيرهم، من الذين يعدون واسطة هذا العقد النفيس و الدرة الثمينة التي ترصع جبين الجزائر الوضاء.

تـنبأ محمـد العيـد بالاسـتقلال حيـن كان الاحتـلال البغيـض فـي أوج غطرسـته و زهـوه يـنشب مخالبـه نشـبا بـلا رحمـة فـي جسـد شـعبنا، و اسـتأنس إلـى قوتـه فاغتـر بهـا، فظـن، أن الجزائـر صـارت جـزءا مـن فرنسـا، و لكـن الجزائرييـن اَلْخُلَّـصَ الأقحـاح البـررة المعروفيـن بالاعتـداد بالنفـس و التشـبث بعقيدتهـم السـمحة و حبهـم العميـق لوطنهـم، خيبـوا ظنـه و كانـوا علـى رأي واحـد فـي تعلقهـم بالحريـة و السـيادة، و لا يبغـون عنهـا بديـلا.

لقـد آلـم محمـد العيـد مـا كان عليـه حـال الوطـن و قـد أحكمـت يـد الظلـم الاسـتعماري قبضتهـا عليـه، فخنقـت الحريـات، و قتـرت علـى الجزائرييـن فـي معاشـهم، و حاربتهم فـي لغتهـم و عقيدتهـم، و لكـن هيهـات أن تحقـق أهدافهـا تلـك و قـد غـرس اللـه فـي الإنسـان الجزائـري نزوعـا دائمـا نحـو الكرامـة، و جبلـه علـى عشـق الكبريـاء و الإبـاء و الأنفـة. فانتفـض و كانـت ثـورة التحريـر الـمباركة، ليدبـج أبطالهـا وبطلاتهـا صفحـات التاريـخ الحديـث بمـداد دمائهـم، و يزكـوا أرض الوطـن الـمفدى بنفيـس أرواحهـم.

و جاء الاستقلال، و بدأ الجزائريون مرحلة جديدة في تاريخهم الحديث، هي مرحلة البناء و التنمية، وإعلاء راية الوطن خفاقة في العالمين، و كان محمد العيد، كما بالأمس، بلبل الجزائر الصداح، و عندليبها الغريد، غنى بقصائده أيامها و ملاحمها المجيدة و ذكرياتها الخالدة، فكتب رائعته من وحي الثورة والاستقلال، و حمل في هذه المرحلة شعار « حي على العلم، حي على العمل».

هكذا كان عطاء رجل ألهمه الله سحر الكلام، و بديع البيان، فانقادت له قوافي الشعر، و كتب من المطولات، و من لزوم ما لا يلزم، القصائد الغر في الحكمة، و الأخلاق، و المجتمعيات، و المراثي، والأناشيد، و الإخوانيات، بل، و كان له إسهام جليل في الشعر المسرحي.

فمن واجبنا نحوه أن تطبع أعماله على نهج ترتضيه الذائقة الأدبية الرفيعة، و الاحكام العلمي الأكاديمي،

و هـو مـا اضطلـع بـه الأسـتاذ باسـم بـلام بإنجـازه هـذا الـديوان الضخـم الـمتميز الجامـع لـكل أشـعار محمـد العيـد آل خليفـة أو لجلهـا .

إن مـا يعجبنـا فـي الجهـد الـمضني الـذي بذلـه هـذا الباحـث الصبـور فـي جمـع « الأعمـال الشـعرية الكاملـة» لـمحمد العيـد آل خليفـة هـو أنـه أبـى إلا أن يخـدم تـراث الجزائـر العظيـم ، و عـرض محاسـنها الفاتـنات فـي فـن القـول و الشـعر، و غـرس الـروح الوطنيـة خاصـة فـي ناشئتها، و ذلـك بتشـرب قيـم النـضال و النخـوة الوطنيـة، و الجمـال و الـذوق، و البنـاء و الإعمـار، و العمـل و الإتقـان، كل ذلـك لا يـنال إلا بقـراءة مجدهـا فـي التاريـخ، و مجدهـا فـي الكلـمة الحـرة و الأدب الـرائق، و محمـد العيـد خيـر مـن جمـع بيـن الـمجديـن فـي أشـعاره.

حقـا، يـا شـاعرنا الجليـل، أنـت تسـتحق صفـة «شـاعر الحريـة» بـكل جـدارة. أولـم تذكرنـا، منـذ مطالـع الصبـا الأول، بـأن «عهـد الظلـم ليـس ببـاق»، فـي تمثيليتـك الرائعـة

عن الصحابي الجليل، بلال بن رباح؟ لقد تعلمنا منك الشيء الكثير عن الوطنية و عن الحرية قلت فيها ما قلت حتى كدنا نراها على مرمى حجر منا، و يكفينا أن نشمر عن سواعد الجد، و نشحذ العزائم، لكي نبلغها حتى وإن طارت أرواحنا شعاعا، و تمزقت أجسادنا أشلاء. والحرية التي ننعم بها اليوم هي من صنيع رجال فحول أمثالك، عرفوا كيف يبدعون الحكمة ويصوغونها ويغذون بها روح شعب بأكمله.

و علمتنا أيضا، أيها الشاعر النابغة، أن الحرية لا تتخذ إلا شكلا واحدا حتى و إن رمز إليها الشعراء بالعديد من الأوصاف. و هل من حاجة إلى أن نذكر القارىء بقصيدتك العصماء عن الحرية؟ لقد تغنيت «بليلاك» في وقت ادلهمت فيه الخطوب، و عصفت العواصف بهذا الشعب، وما كانت «ليلاك» إلا الحرية نفسها. و ما كان أروعك و أعظمك حين قلت تتساءل في مطلع قصيدتك:

أيــن ليــلاي، أيــنها ✯ حيـل بيــني و بيــنها...

أفــدي قلوبــا عشــقنها ✯أفــدي عيونــا رأيــنها

مـا كانـت تلـك القصيـدة صبـوة مـن صبـوات شـاعر، وإنمـا كانـت صرخـة نـدت عـن صـدر إنسـان يتطلـع إلـى أن يقـف علـى قدميـه فـي هـذا الزمـن. و مـا كنـت إلا رمـزا مـن رمـوز الحريـة فـي زمننـا هـذا. فطـب نفسـا و أنـت فـي دار النعيـم تكلـؤك عيـن اللـه الـرؤوف الرحيـم.

فهنيئـا للقـراء بهـذا العمـل الأدبـي الجليـل، وهنيئـا للأسـتاذ باسـم بـلام علـى هـذا الجهـد الـمتميز مضمونـا وشـكلا، و هنيئـا للثقافـة الجزائريـة بهـذا الـمولود الجديـد ومزيـدا مـن النجـاح و التألـق، و شـكري لـه موصـول علـى إيثـاره إيـاي بشـرف تصديـر هـذا الديـوان الـذي حـاز الفخامـة و الجلالـة معـا.

عبد العزيز بوتفليقة